أمينة خليل

سلام

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة تناهت إلى سمعي أصوات مدوية في الخارج، قمت مُرتكزة على حافتي الكرسي واتجهت إلى نافذة الغرفة، فرأيت الأمطار من شدة هطولها حوَّلت الشارع إلى بركة، وأفرغت ما فيه من المارين....

وما زاد الموقف هيبة أصوات الرعد التي تغزو السماء بقوتها، وكأنها تخبر وصول الأرض إلى نهايتها، والتقاءها باليوم الموعود.

أغلقتُ نوافذ البيت بإحكام، وأسدلت من فوقها الستار علَّها تُخفف من وطأة الجو.

اتجهتُ إلى غرفة نومي، وقبل أن أصل إليها لَمحت عيني قطعة مرآة مكسورة فوق المنضدة فالتقطها، ونظرت إليها لأول مرة منذ فترة طويلة..

فقد كنت أتعرف على وجهي في زجاج النوافذ بعد أن كسر أصغر أحفادي المرآة الوحيدة المُعلقة على الحائط في غرفة نومي.

أطلت النظر إليها، فرأيت وجهي وقد بدَّل ملامحه الزمن... غارت عيناي إلى الداخل، وأطبقت شفتاي على فكيّ، وبرزت عظام وجهي، واشتعل الشيب في رأسي،

تأملت وجهي بابتسامة راضية وعلى عكس ما كنت أتوقع في صباي أن أحزن عندما يُفارقني سواد شعري، ونضارة وجهة وامتلاؤه، ويُصّير الزمن جسدي المُتهدِل ضريبة لعبوري آخره....

نفثتُ طويلاً تاركة لكل الأعباء والمسئوليات التي تحملت عناء حملها بصلابة أن تنجلي.

ارتعشت يداي، ولم تعد تتحمل القبض أكثر من ذلك. تهاوت المرآة على الأرض، فحاولت أن ألتقطها ولكن ظهري أبى الانحناء.

نسيتُ إلى أي مكان كنت ذاهبة، ولكن شدة البرودة ذكرتني، فذهبت إلى غرفتي، وتدثرت بأغطية ثقيلة، ولكن قلبي ظل يرتعش حتى طغى على ارتعاشته ألم في صدري.

الألم يتصاعد شيئًا فشيئًا، لم أعد أستطيع التحمل أكثر من ذلك. حادثتُ أبنائي في الهاتف، وعلى الرغم من أن الوقت قد تعدى الواحدة بعد منتصف الليل، إلا أنني طلبت منهم الحضور بأولادهم، لم أتعمد إثارة قلقهم عليّ، ولكن انقباضة قلبي تُخبرني أن ثمة شيئًا ينتظرني لا أقوى على احتماله وحدي.

مرت علي دقائق طويلة حتى امتلأ بيتي بأبنائي وأحفادي، وعلى الرغم من ذلك شعرت بوحدتي بينهم، معدتي تؤلمني ولا يتسعُ صدري لأنفاسي، نظرتُ لأبنائي وأحفادي بعيون غشيها الدمع راجية أن يفعلوا شيئًا لِيُغيثوني من هذا الذي يفتك بي، أشفق عليهم من نظراتهم، إيماءاتهم القلقة، ولكن ليس بيدي حيلة، أقوم وأجلس، وأكرر ذلك مرات عدة أحاول استرضاء جسدي الثائر بأي وضع، فلا أسكن قائمة ولا أسكن جالسة، حتى تهاوت قوتي فلم أستطع سوى التحامل على يد أحفادي، أحاطوني بأذرعتهم حتى سكنت في أحضانهم، أخذني دوار ورأيت حياتي التي ظننتها ستطول أمد الدهر تنطوي الآن.

فها هي تعرض أمامي.: وتوقف العرض عند دقائق مر عليها أعوام مديدة، كنت وقتها لم أتعدّ الثلاثين من عمري.

تمر أمامي الآن أبطأ مما عايشتها، كانت قد انجلت من ذهني منذ أمد بعيد، ولكن يبدو أنها لم تمحَ من صحيفتي..

"كنت منهمكة في أعمال البيت، وقطع عليّ ذلك صوت تنهيدات ابنتي، التي لم تكن قد تعدت بعد السبعة أعوام، تركت ما في يدي وذهبت إليها.

وجدتها تجلس على الأرض، وقد أحاطت بذراعيها ساقيها، ونكست فيهم رأسها، وكأنها كانت تريد أن تختبئ من شيء ما.

هرعت إليها ورفعت رأسها، وثبتت عيني إلى عينها.

وسألتها: ما بكِ بنيتي؟

قالت: أخشى أن يُعذبني الله.

فقلت: وماذا فعلتِ ليعذبك؟

قالت: وماذا فعلت ليرحمني؟

فقلت: هل حدث شيء اليوم؟

قالت: مُعلمتي أخبرتنا عن العذاب الذي ينتظر تارك الصلاة، وأننا ربما نكون في حمى الآن، ولكن إذا تلبست بنا هذه العادة السيئة من الصغر إلى أن يجري علينا القلم، فلن تتركنا حتى تهوي بنا في نار جهنم.

أكملت وهي تنتحب: أريد أن أموت الآن، أريد أن أكون في مأمن من عذاب الله.

ضممتها إلى صدرى، وانتظرتُ حتى هدأت نسبيًا، وتوقفت عن البكاء،

وقلت لها: أتعلمين حبيبتي ما هو الله؟

قالت: بالطبع أعلم.

فقلت لها: لا... لا تعلمين، إن كنتِ تعلمين لما كنت رأيت كل هذا الخوف والفزع في عينيك،

الله هو السكن... الملجأ، هو أرحم عليكِ مني، رحمته سبقت غضبه، وحلمه سبق مؤاخذته، وعفوه سبق عقوبته...

لا تلجئي إلى شيء منه، بل الجئي إليه من كل شيء.

وكوني على ثقة أنكِ ما دُمت في حماه فلن يُضيعكِ ما حييت"

لا أعلم لماذا هذه اللحظة بالذات هي التي برقت في ذهني في هذا الوقت، ولكن يبدو أن الخوف الذي انتزعته من قلب طفلتي، كان سيهوي بقلبها وروحها إلى الآن، ماذا لو ظل هذا الرعب من الله ملازمًا لها؟ إلى من تلجأ في ضعفها؟

إلى من تشكو حين يطغى عليها أحدهم؟

إلى الله؟

ولكن كيف ذلك وهو سبحانه لم يعد مصدر أمان لقلبها؟

فقد استقر في قلبها الخوف من منبع الأمان.

والخوف والأمان أبدًا لا يجتمعان.

أفقت من إغماءتي، ولمّا نظرتُ حولي ابتسمت، أدركتُ وقتها أن أسطورتي لم تنتهِ بعد، ففروعي مازالت مشرقة تنشر ثمارها على ضفاف الحياة.

فقد عشت حياتي بالأمان، واليوم أنهيها بالأمان، وأبدأ حياة أخرى لا أعرف عنها شيئًا سوى أن الرحيم الذي أمّن عباده في الدنيا لن يتركهم يوم العرض عليه.

إلهى.. أشتاق إليك.. ولا أهاب وسيلة العروج إلى دار البقاء. فكيف يهاب المرء من لقاء حبيبه؟

سقطت يدي من يد حفيدي، وسكنت روحي إلى بارئها.

تاركة من أحب للقاء من أعشق.

كانت آخر خبرتي بهذه الحياة دموعًا حارة سقطت على وجنتيّ، وقبلة رضا طُبعت على جبيني - تمنيتُ لو طالت - وكلمة عذبة خرجت من فم أحدهم... ارقدي بسلام.